# البيئة الروائية

يمثل الفضاء المكانى والمجال الزمنى ركناً مهماً فى البناء الروائى عند نجيب االكيلانى ، وبخاصة فى مرحلته الواقعية الإسلامية ، حيث يُعطى كل من المكان والزمان دلالات تُسهم فى بلورة الرؤية الروائية – إن صحّ التعبير – للشخصيات والأحداث ، وفهم القضايا الإنسانية التى يعيشها المجتمع ، ويتفاعل معها وينطلق من خلالها إلى تصور المستقبل أو الحلم به ..

وإذا عرفنا أن الكاتب قد ارتبط بقريته ( شرشابة ) التى تقع فى أعماق محافظة الغربية ، ارتباطاً وثيقاً ، مع أنه اغترب عنها عُمراً أطول من عمره الذى عاشه فيها ، سواء بالعمل فى القاهرة أو فى الخليج ، فإننا لن نستغرب أن تكون القرى التى جرت فيها حوادث رواياته الأربع ( كفرأبو سالم – كفر علام – الربايعة – شنراق .. )هى قرية ( شرشابة ) بصورة وأخرى ، ولم يخف الكاتب أنها تقع فى محافظة الغربية ، وأنها قريبة من مدينة طنطا ، وفى ذلك ما يعنى أنه يتكىء على مكان مألوف لديه ، خبرته به واسعة وشاملة ، ولعل هذا ما جعله يقدم لنا القرية تقديماً جاهزً دون أن يسهب فى وصفها أو بيان معالمها فهو يقدمها كأنها مألوفة لدينا نحن أيضاًونعلم بيوتها وشوارعها وأشجارها ومسجدها وحقولها ومواشيها ...

ومع أن القرية تبدو بسيطة منزوية فى وسط الدلتا ، وينتمى إليها معظم شخصيات الروايات ، إلا أنها حاضرة حضوراً قوياً فى اللغة وطريقة التفكير والصورة التى تعامل بها هذه الشخصيات...

وهذا الحضور القوى ينبىء عن دلالة أخرى للقرية حيث تصبح رمزً عاماً للوطن أو الأمة كلها بأهلها وناسها وهمومها وعذاباتها وصراعاتها وطموحاتها ..

إن الذين يقابلوننا فى القرية عادةً هم من البسطاء الفقراء الباحثين عن لقمة العيش، أو التواقين إلى العدل والإنصاف ،أو الحالمين بالإصلاح وتصحيح الانحراف لأن ذلك يمثل ذلك يمثل ضرورة لهم على المستويين الشخصى والجماعى ( عبد المتجلى القصاص أو الشيخ محمد مثلاً ) حتى ( أبو الفتوح الشرقاوى ) المتقمص لشخصية العارف بالحقائق المتفوق على أقرانه الذين لا يعرفون شيئاً ، كان يحلم بالخروج من دائرة " الدونية "التى يحيا فيها آملاً فى مستوى أفضل .

وفى القرية لن تجد فارقاً كبيراً بين الشخصيات ، فهى تنتمىإلى مستوى متقارب نفسياً واجتماعياً وروحياً على الأقل ، حتى العمدة الذى يكون عادة أعلى مستوى مادياً واجتماعياً ، فإن أعماقه مرتبطة بمجموع البسطاء الفقراء فىمشاركتهم مشكلاتهم ومناسباتهم ، وإذا كان العمدة يبدو غالباً رمزً للغطرسة والقهر ، فإنه لدى " نجيب الكيلانى " يتحول فى بعض الأحيان إلى صفوف المعارضة ، والانتماء لجمهور الناس لأن ضميره الدينى يجعله ينحاز إلى الحق والعدل ، كما نرى عمدة " ملكة العنب " وبصفة عامة فإن حضور القرية فى روايات الكيلانى يجعلها مسرحاً للمجتمع الإسلامى وشخصياته وحوادثه ، مما يعنى أن القرية تمثل صورة للأمة فى حال تواضعها وهمومها ومشكلاتها وفى حال تمردها على الظلم ورغبتها فى الإصلاح وإرادتها فى مواجهة القوى القاهرة ..

ولأمر ما ، كان الأبطال المتمردون المصلحون الثائرون من القرية ، وكان رموز الظلم والقهر والفساد من المدينة .. ولذا كانت القرية فى مواجهة المدينة .. من القرية خرج عبد المتجلى للبحث عن الونش " لم يعد يتصور أن بالمدينة رجالاً ، فجاء من أعماق الريف حاملاً سيف الإرادة الخرافية ليبحث عن المفقود ، ويفضح المستور ، ويكشف عن وجه

المدينة القبيح ... [١]. ومن القرية أعلن الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد عما يرتكبه زراع العنب فى الربايعة من إثم وتقصير بعدم إخراج الزكاة ...وكان الشيخ محمد وأهل القرية قوى التصدى لجبروت السلطة وطغيانها ، بل إن " أبو الفتوح الشرقاوى " اللص الكذاب ، يتحول إلى ضحية مظلومة ومن ثم إلى رجل صالح يسعى إلى الخير ومقاومة الشر.إن القرية تظل تحت كل الظروف رمزاً للأمان والطمأنينة والسماحة ، مع كل ما يحدث لأهلها من مظالم وتعاسة ، فى مواجهة المدينة رمز الخوف والرعب والأنانية .ولنتأمل ذلك الحوار الذى يجرى بين " أبو الفتوح الشرقاوى" وإمرأته ، بعد أن اختفى عن عيون الذين يطاردونه فى القاهرة:

همس

-فيم تفكرين يا عبيطة ؟ .

-بيتنا الصغير فى القرية ..

-ليس فيه ما يساوى نصف فرنك .. [٢].

-فيه الخير كله ..

- إن ما يحز فى نفسى يا قطيفة هو ترك الحمار وحده ..سيموت من الجوع .

- لن يتركه الجيران بدون أكل ..لكن ...

- ماذا؟.

- دائما أخاف من البندر.

-نحن فى المحروسة يا هبلاء .

---

١- اعترافات عبد المتجلى ، ٣٠.

٢- نصف الفرنك كان عملة معدنية سائدة فى مصر إلى قبل عقدين أوثلاثة من الزمان تقريباً ، وكان أيامها يساوى قرشين ، وقد اختفى الآن مع عملة القرش ذاتها التى ظل لها وجود اسمى فقط .

- الناس فيها غير الناس فى قريتنا .

- كلهم خلق الله .

- وخلق الله ليسوا سواء ... أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح ..

- أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة .

- كانوا يضربونك دون رحمة ..

- غلطانة !! أصحاب البدل يصدرون الأوامر .. والمخبرون يضربون .. وهم يلبسون الجلابيب مثلنا .. ثم هؤلاء الذين أنقذونا وأتوا بنا إلى هذا المكان .. إنهم يلبسون البدل..اللبس

ليس كل شيء ..هزت رأسها قائلة :

- عندك حق .... (١).

وهذا الحوار ينبيء عن خوف دفين لدى الريفى من المدينة ، وأهلها الذين يلبسون " البدل" ويضربون البسطاء والمظلومين ، وهو من تلحّ عليه " قطيفة " من كلامها مع زوجها " أبو الفتوح " وتعبر عنه بأكثر من صورة دائما أخاف من البندر و" الناس فيها غير الناس فى قريتنا " " وأشعر أنهم بشر غيرنا " وكانوا يضربونك بلا رحمة " ، ومع أن زوجها يحاول أن يكون موضوعياً أو عادلا فى حكمه على أهل المدينة ، إلا أنه يبدى انزعاجه وخوفه على" الحمار "الذى تركه وحيداً فى القرية لكن " قطيفة " تعلن أن الجيران لن يتركوه بدون أكل ، وقبل ذلك تعبّر عن تمسكها ببيتها الخاوى فى القرية ، كأنها تقول : إن البيت الخاوى الذى ( ليس فيه ما يساوى نصف فرنك ) ممتلىء غنى بمشاعر الجيران والناس هناك فأهل القرية متضامنون متكافلون حتى مع الحيوانات ، فهم لن يتركوا الحمار بدون طعام أو

١- قضية أبو الفتوح الشرقاوى ١٠١/ ١٠٢.

شراب . أما أهل المدينة فلهم شأن آخر ( لا أحد يهتم بأحد ، ولا يفشى واحد منهم السلام والفتيات الجميلات يبتسمن بدون سبب واضح ، والنظرات الوقحة تلاحقهم (كذا؟ ) وكلمات بذيئة تتطاير هنا وهناك يصعب معرفة مصدرها .والسيارات تتسابق فى جنون...(١).

وصورة المدينة بصفة عامة ، والقاهرة بصفة خاصة ، توحى بالضيق والانزعاج والقهر والضياع مثل شوارعها التى تمتلىء بالصياح والباعة والعربات والحافلات والضجيج والأصوات المتنافرة ..(٢).

وكل شىء فى المدينة له ثمن ، لأنها بلا قلب ولا عاصفة "حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن وأين ؟فى أقدس الأمكنة .."، وهذه المحروسة كل شىء فيها يباع ويشترى ، ولا مكان للفقراء إلا العمل أو السرقة "(٣).

ولكن المدينة تبدو لأبطال نجيب الكيلانى محط العذاب والتناقضات ، والخير والشر ، وذات ألف وجه ووجه ولكن الخير فيها يرتبط بالبسطاء . وبأماكن العبادة ففى المساجد يجد الأبطال الإحساس بالراحة والاطمئنان ، ويجدون هناك من الشيوخ والصحاب ما تهون بصحبتهم مشكلات الحياة ومصاعبها ، وكان عبد المتجلى مثلاً عندما تضيق به السبل يقصد مسجد السيدة زينب هرباً من المتاعب أو سعياً لحل مشكلاته ، فيجد عند صديقه " بيومى " عامل النظافة الأنس والمودة والمكان الذى يأويه( على سطح المسجد )، وإن لم يمنعه ذلك من انتقاد المدينة وما يسودها من قيم والتهكم عليها وعلى أهلها :

---

١- تأمل تصوير الكاتب لميدان السيدة زينب وما يجرى فيه : امرأة عبد المتجلى ١١٦.
٢- اعترافات عبد المتجلى ، ٣٥.
٣- السابق ٣١

" هل ما زال دخول المرحاض عندكم برسوم ؟.

ضحك بيومى ، وأخذ يتحسس لحيته ويقول :

-ارتفعت أسعار كل شيء .. (١).

ومع مظهر الخير فى المدينة التى تبدو محددة ومتواضعة ، تبقى الصورة العامة قرينة الشرّ والفساد وموطن المافيا التى تتحكم فى مصائر الناس ، وتمارس الفجور والانحلال وامتصاص دماء الفقراء والمطحونين ، وهاهو عبد المتجلى يصف اجتماعاً للتجار الكبار فى المدينة الإقليمية " لقد رأى فى الحفل الساهر الذى شهده ، أمارات التفسخ والفساد جهاراً ، سمع بأذنيه ورأى بعينيه مجموعة من المتآمرين يستغلون الفرصة للإثراء وتكديس الأموال بشتى الوسائل والحيل ، آلمه أشد الألم أن يتصرفوا وكأنهم أصحاب الرأى والأمر ، وكأن الشعب رعية ذليلة تدين له بالطاعة والولاء ،ولا يجرؤ أحد أن يرفع رأسه ويقول لهم : هذا ظلم ..هذا حرام ، والكارثة أن ممثلى السلطة يحترمونهم ، ويبسرون لهم سبيل النهب ويحرسونهم من الاعتداء أو حتى النقد البرىء، بل إن نسبة كبيرة منهم أعضاء فى المجالس الشعبية والبرلمان ، والبعض الآخر يحتل مناصب رسمية ..إلخ "(٢).

هكذا تبدو المدينة رمزاً لكل الرذائل والكوارث ، ومصدراً للمصائب والنكبات ، لذا نجد الشخوص فى روايات نجيب الكيلانى تتعامل معها من الخارج ، لا ينغمسون فيها غالباً إلا إذا كانوا من الانتهازيين أو المتسلقين أو الجلادين أو المنحرفين ..إن العناصر الخيرة فى المدينة تبدو قليلة ومنزوية وزاهدة ومثالية كما نرى فىالشخصيات الروائية ..

أما القرية أو الريف فيبقى رمزاً للطيبة والسماحة والأمان ، وإن كانت تظهر على صفحته سلبيات التحول الاجتماعى والتغييرات الفكرية التى تصدرها المدينة أو تتسبب

١- امرأة عبد المتجلى ، ١٥٢وما بعدها .
٢- امرأة عبد المتجلى ، ١٥٢وما بعدها .

فيها .. وفى الوقت ذاته يظل أشرار الريف أقل خطراً من أشرار المدينة أو انحراف المنحرفين القرويين محدوداً بالقياس إلى نظرائهم فى البندر.

إن المكان فى روايات نجيب الكيلانى التى بين أيدينا محدود ومعاصر لنا فهو يتناول فترة قصيرة تتراوح بين شهور ( كما فى ملكة العنب ، وقضية أبو الفتوح الشرقاوى ) وسنتين أو أكثر قليلاً ( كما فى اعترافات عبد المتجلى ، وإمرأة عبد المتجلى ).

والفترة الزمنية الروائية تدور فى أواخر الثمانيّات بالنسبة لروايات ثلاثة ( اعترافات عبد المتجلى ، امرأة عبد المتجلى ، ملكة العنب ) وفى زمن الحرب العالمية الثانية لرواية ( قضية أبو الفتوح الشرقاوى ).

وقصر الزمن الروائى فى الرباعية له تأثيره فى بنائها ، حيث جعلها مركزة أو مكتنزة ، لا مكان فيها للحشو أو الفضول ، فضلاً عن كونه أعطاها عنصر الحيوية والتشويق فى ظل وجود كمّ كبير من الأحداث والمواقف ...

أما معاصرة الزمن الروائى فهى سلاح ذو حدين ، ويستطيع الكاتب الموهوب أن يستخدمه استخداماً جيداً ليعالج قضايا مجتمعه الراهنة من جهة ، وفى الوقت ذاته يبث الحياة فى شخصياته أو أبطاله ليكونوا نماذج إنسانية حية تعيش طويلاً من جهة أخرى وهذا ما نجح فيه نجيب الكيلانى إلى حد كبير ، باستثناء بعض الثرثرة السياسية التى كان يغالبها فى بعض المواضع (١).

أما إذا اكتفى الكاتب بمعالجة الأحداث المعاصرة دون احتفال ببقية العناصر الروائية ،فإن عمله يبقى محدود القيمة ، لأنه مرتبط بفترة معينة ، تتغير بعدها الظروف والأحداث ، ولا يبقى منه إلا الذكرى التاريخية التى لا تمثل شيئاً بالنسبة للقارىء ، حيث

---

١- انظر على سبيل المثال وصف عبد المتجلى لحفل التجار الذى أشرنا إليه قبل قليل : امرأة عبد المتجلى ، ١٥٢/١٥٣

تكون الظروف الجديدة قد غيرت والظروف السابقة عليها أو عدلتها [١] ... أما النموذج الإنسانى الحىّ الذى شارك فى الأحداث ، فيبقى حياً دائماً فى النفوس والقلوب التى تتلامس معه أو تلتقى به .

ولا ريب أن الفترة الزمنية المعاصرة حافلة بالكثير من الأحداث التى تحيط بنا وتضغط علينا بسلبياتها الكثيرة .. والعديد منها قد يدخل فى دائرة المتغيرات ، ولكن أهمها هو الذى يتعلق بحركة الإنسان وقيمته الإنسانية ، وهو ما يكتسب قيمة مستمرة لا يهبط بتغيير الظروف والأحوال .

فحرية الإنسان وحقه المشروع فى الاعتقاد وقدرته على الاختيار ومقاومته للظلم والتوحش ورفضه للقهر والتعذيب ، أمور ليست مرتبطة بعصرٍ دون آخر ، ولا وطن دون غيره ولا إنسان دون سواه ، بل هى أمور إنسانية عامة ذات أهمية فى كل زمان و مكانٍ .. ومن هنا فإن التصدى لها فنياً يمثل اختياراً موفقاً .. إنّ شكوى الفلاح المصرى القديم ، المعروفة باسم شكوى " الفلاح الفصيح " تمثل حتى اليوم رمزاً للمواجهة الجريئة الشجاعة التى يحلم بها كل المظلومين فى أنحاء الدنيا .. تُرى هل كانت حيوّية الموقف أو فصاحة الفلاح أم كلاهما معاً وراء الخلود لهذه القصة .؟.

لقد ركز نجيب الكيلانى على قضايا الإنسان الحيوية المعاصرة ، فاحتشد لها وحقق بذلك انحيازه لمجتمعه وقضاياه ، ثم أعطى لفنه نفحة من الحياة المستمرة بحيث تجد فيه الأجيال التالية ما تبتغيه من الفن الجيد .

إنّ اختيار الزمن المعاصر أو الفترة الراهنة مجالاً روائياً ، كان له تأثيره على سياق الأحداث ، بحيث صار الزمن الروائى زمناً تصاعدياً ومطرداً ، يسير على نسق

---

١- محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ط ٧ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩، ص ١٥٦.

متتابع ، ليتناغم مع تسلسل الأحداث المتلاحقة ، ونادراً مانجده يتقهقر إلى الماضى أو يعود إلى تاريخ الأشخاص عن طريق التذكر ، أو ما يسمى بلغة السينما (الفلاش باك) كما نرى مثلاً عندما تتذكر " براعم " من ملكة العنب " ، مرحلة الطفولة والتلمذة التى كان لها تأثيرها على حياتها ومسيرتها ، ولكن الزمن الروائى يظل بصفة عامة ، زمناً تصاعدياً مطرداً يؤكده ضمير الغائب الذى يسود الروايات فى عملية السرد التى انتهجها الكاتب .

وقد يثور سؤال حول دلالة الزمن الذى اختاره لروايته " أقوال أبو الفتوح الشرقاوى " وهو زمن الحرب العالمية الثانية .

ويبدو لى أن الكاتب لم يهرب من أيامنا ، بل لم يغادرها على الإطلاق . صحيح عاد إلى الوراء ما يقرب من خمسين عاماً كانت الدنيا فيها غير الدنيا ، والنظام غير النظام ، ولكنه أراد بطريقة ما أن يخبرنا أن المضمون لم يتغير ، وأن الحوادث هى هى ..فأهل الريف الفقراء المطحونون ( عصب المجتمع ) مازالوا كما هم ، والطبقة العليا تعيش الفساد والانحلال والمظاهر الخادعة ، وقهر السلطة للناس لن يتغيّر ، والصراع بين الخير والشر والصلاح والفساد باقٍ ومستمر ...

إن زمن الحرب العالمية الثانية يوازى الزمن الراهن بطريقة ما ويتيح للكاتب فرصة أفضل لتقديم شخصياته وأحداثه بما يمنع التأويل والإسقاط على أشخاص معاصرين أو أحداث قريبة فيما لو جعل زمنه معاصراً لنا ، قريباً منا .

وعلى مستوى آخر ، يبدو الزمان الراهن بصورة ما قريناً للمتاعب والمفاسد والمجهول ، ومن هنا تتبدى حالة الهجاء الملحوظة للزمان وأهله فى السياق الروائى ،بل يتحول الزمان إلى رمز للسلبيات بصفة عامة على لسان عدد من شخصيات الروايات الطيبين فها هو أبو المجد شاهين ، الرجل الصالح ، يتمتم قائلاً لزوجته .

" لا يعلم الغيب إلا الله ..هذا زمان الغموض والضلال (١).

والعمدة الطيب يتحدث إلى زوجته مفضياً إليها بهمومه ، فيقول مقارناً بين الماضى والحاضر :

والعمدة الطيب يتحدث إلى زوجته مفضياً إليها بهمومه فيقول مقارناً بين الماضى والحاضر :

" كثيراً ما تحدثنى نفسى ، بأنى غير قادر على حمل المسئولية ، ويبدو لى أنى لم أخلق لهذا الزمان ... فى الماضى كان كل شىء يسير على ما يرام ..لم تحيرنى جريمة ،ولم يستعص علىّ لغز ، أما اليوم فقد تحوّل الناس إلى شياطين ..يحبكون جرائمهم .. ويزوّرون كل شىء ، ويبرعون فى تضليل العدالة " (٢).

وكما نرى فى أقوال العمدة ، فإن الزمان يصير مرادفاً للمجتمع أو لأهل العصر أو للناس الذين تحولوا إلى شياطين فى حبك الجرائم والتزوير والتضليل ...أى تحولوا إلى مجرمين محترفين أذكياء ..

وهناك بالطبع أسباب لهذا التحول نستطيع أن نستشفها عبر الروايات متمثلة فى الظلم والقهر وتلفيق القضايا ومحاربة التدين والاعتماد على المنافقين والوصوليين فى إدارة شئون الناس ، ثم أجهزة الدعاية التى تخفى الحقائق وتنشر عكسها .

" هذا زمن التمثيل والتمثيليات . لقد تربع التلفزيون على العرش ..آه يا دنيا السلبيات والأكاذيب "(٣)

---

١ - ملكة العنب ، ٣٢.
٢ - السابق ٣٣.
٣ - نفسه ٤٦.

وهكذا يبدو هجاء " الزمان " متناغماً مع اختيار " الزمن المعاصر " مجالاً للبناء االروائى ، حيث يحفل هذا الزمن بالكثير من المتاعب والمفاسد والمجهول ..

إن البيئة الروائية فى روايات نجيب الكيلانى ( مكاناً وزماناً ) تحقق مجالاً رحباً للواقعية الإسلامية التى ينتهجها المؤلف ،وتتناغم مع المعطيات التى طرحها عبر الشخصيات والأحداث لتبشر بمكانٍ (مجتمع ) جديد ، وزمان (عصر ) جديد ، تولد فيها قيم الحق والعدل والأمان ، وترفرف عليها رايات الإسلام ، أساس هذه القيم وصانعها .